

إبداعية اللغة الصوفية... مقاربات دالة (ج1)

الأستاذ : المصطفى مسالي *

مركز يوسف بن تاشفين للدراسات والأبحاث من أجل اللغة العربية : المغرب.

مطلع

اللغة مستودع أسرار الصوفي. وكلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة، لذلك نجد الصوفي يتولع في العبارة يزعجه تراكمها في وجدانه خاصة وأنه مطالب بالتمام في التعبير كما واقع وحاصل، فكيف له أن يجمع بين قواعد اللغة في بيانها ومنطق برهانها، وبين تعبيره فيها عن منطق روحه ووجدانه؟!

إن عظمة اللغة على قدر رمزيته، وليس المقصود بالرمزية هنا سوى أبعادها المتجددة والمتسعة، وما ذلك إلا لجمعها بين وحدة الشريعة والطريقة والحقيقة، إنها لغة مبدعة، وما الإبداع إلا حالة من السمو، إن لغة الصوفي يقظة دائمة يتحد فيها الأنا بالحق (المطلق)، وهذا الأمر يجعل من أقواله وأفعاله محلا للمعاني والأسرار؛ وليس الحرف والعبارة والكلمة عند السادة الصوفية سوى الأصوات المعبرة الناطقة باسم الحقيقة والتجربة الشخصية؛ وهذا يعني أن لغة الصوفي هي اللسان المعبر عن خلجاته روحه العميقة وحده و خاص رؤيته الكامنة في روحه المبدع المحلق في الملكوت، ولذلك فإن الإخلاص للحق والتعبير عن الحقيقة هما جوهر لغة الصوفي ومنطق تعبيرها.

• قواعد وفواتح

من أهم قواعد اللغة الصوفية ما عبر عنه النفري في موقفه القائل:

الباطل يستعير الألسنة

ولا يوردها موردها كالسهم تستعيه ولا تصيب به.

وقال لي الحق لا يستعير لسانا من غيره¹

فاللغة الصادقة المعبرة الدالة المبدعة، حسب تعبير، النفري هي تعبير صادق عما فيها بما فيها، بينما الخروج عن هذه القاعدة لا يؤدي بالصوفي إلا إلى إحراق الروح واعوجاج المعنى وفساده.

وليس اللسان المعبر عن لغة الصوفي سوى قلبه أو روحه العاكفة على باب الحق، وقد صاغ ذلك النفري في موقفه هذا:

أظهرني على لسانك

كما ظهرتُ على قلبك

وإلا احتجبت عنك بك

إن احتجبتُ عنك بك

عصيتني في كل حال

وأنكرتني في كل حال²

إن إنكار الصوفي الحق في كل حال يفقد لغته تعبيرها الصادق عن لسان الحقيقة، "عصيتني في كل حال"، وحتما "أنكرتني في كل حال".

إن الحرف عند السادة الصوفية رمز الوجود، والتعبير الصادق عنه، فهو ليس فقط ميدانا للجدل العقلي والمطارات المنطقية، والبيانات المجردة.

نعتبر إلى تجلية معنى الحرف عند القوم من خلال هذه المخاطبة المعبرة
للفنري:

يا عبد الحرف لغات وتصريف

وتفرقة وتأليف

وموصول ومقطوع

ومهم ومعجم

وأشكال وهيئات³

فستان بين المنقطع والمتصل من البيانات، وستان بين الموصول والمحروم،
ستان بين المؤلف والمفرق، شتان بين الشكل والهيئة...

وفي مخاطبة الثالثة والخمسين يقول:

الحرف ناري

الحرف قدري

والحرف دهري

الحرف خزانة سري⁴

الحرف عند الصوفي تعبير عن وحدة الظاهر والباطن عبر إحلال الحق في
كلماته ولغته السارية؛ إذ بالحق نجمع حقائق الحروف ومعانيها، بل لا ينبغي
للسوفي أن يقف عند هذا الحد، بل عليه بعد أن يعبر عن المعاني السارية في
الوجود والتي يفيضها الحق عن قلبه، عليه أن يخرج من الحرف إلى الحق،
لكي لا تحجبه لغته عن شهود الحق، ولذلك فلغة الصوفي مرقاة وسيلة يعبر
بها ويخرج عنها، وهذه هي المفارقة التي تنبني عليها لغته، فهو لا يمكث معها إلا

حيث يعبر بها عن لسان الحق، ثم من أن يلبث ليخرج منها وعنهما إليه؛ وإلا كان منشغلا بها عنه، يقول النفري في أحد مواقفه معبرا عن ذلك:

وقال لي الخارجون عن الحرف هم أهل الحضرة.

وقال لي الخارجون عن أنفسهم هم الخارجون عن الحرف.⁵

وتلك عند السادة الصوفية من الحجب الصادة عنه، فهو لا ينبغي له أن يتعلق بالكون عن المكون، ولا بظاهر الأشياء عن بواطنها.

إن لغة الصوفي هي نُطق قلبه، وكل ذلك ناتج عن معاناته وتجربته الذاتية في طلب الحق والبحث عن الحقيقة، ومن كل هذا فلغته نابغة عن شفافية روحه وقربه من منبع الحقيقة وبيت الحكمة، فاللغة الصوفية تكونت في أتون معاناة الصوفي وسعيه وترقيته في مقامات القرب من الله، وكل لغة نابغة من تجربة ذاتية فهي تخرج التجريد، فعندما يفنى الصوفي في الحق، فإنه يظل موحدا فاعلا ما فَعَلَ (أي الحق)، وقارئاً ما قرأ كما عبر عن ذلك الإمام الأكبر في فتحه.

. اللغة والغيب

نعبر إلى الفتح اللغوي عند السادة الصوفية عبر رؤية رآها الإمام الأكبر، نجعلها المنطلق الأساس لتحديدنا لدلالات الفتح اللغوي عندهم، هذه الرؤيا رآها في بجاية عام 597هـ يقول: "رأيت ليلة أني نكحت نجوم السماء كلها فما بقي منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية، ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها، وعرضت رؤياي هذه على من عرضها على رجل

عارف بالرؤيا بصير بها، وقلت للذي عرضها عليه لا تذكرني، فلما ذكر له الرؤيا استعظمها وقال: هذا هو البحر العميق الذي لا يدرك قعره، صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية، وعلوم الأسرار، وخواص الكواكب، ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه، ثم سكت ساعة وقال: أما صاحب هذه الرؤيا في هذه المدينة فهو ذاك الشاب الأندلسي الذي وصل إليها⁶.

إن هذا الفتح الذي تحدث عنه معبر رؤيا صاحبنا، يصاحب حتى عبارات الصوفي وكلماته، وقد أحدث الشيخ فتحين لغويين: فتح يشترك فيه مع بقية الصوفية، وهو نقل اللغة من السطوح إلى الأعماق، ولا نعني بنقل ابن عربي اللغة من السطوح إلى الأعماق، سوى فتحه أبواب اللغة على التعبير عن المواجيد وحقائق الأشياء بدل اللهث المحموم وراء التصنيع اللفظي، وتشقيق الكلمات لتستمد الكلمة إبداعها الحر، وتنطلق في آفاق الحرية الصوفية التي تعني شيئا واحدا: ألا يسرق الكلمة كون غير الله عز وجل، فكلمات الصوفي عبيد لله عز وجل، فعبارات الصوفي لا بد لها من توقيع الله عز وجل. وتوقيع الله عز وجل إذن إلهي بالتحدث، وبث كلمته في العالمين، وفتح انفراد به: هو نقل اللغة من الوجدان إلى الوجود،

ويتأسس فتحه اللغوي على قاعدة استيعاب الجديد للقديم والانطلاق منه إلى ما هو أعلى وأجل، فشوق الكلمات عند الرجل وحنينها إلى موطنها الأصلي، لا يختلف تماما عن حنين الإنسان وشوقه إلى مبناه ومعناه، وهذا ما تلمسه في كل حرف، أو كلمة، أو حركة، يعبر عنها صاحبنا في تراثه الضخم الزاخر المثلث بالمعاني والدلالات.

لقد فتحت أبواب اللغة أمام الإمام الأكبر، كما أعطي سر الوجود عبر الكشف والمكاشفة⁷. فكان لا بد لهذا الفتح اللغوي من توقيع الله عز وجل، "ولا أنزل في هذا المسطور إلا ما ينزل به علي، ولست بنبي ولا رسول، ولكني وارث ولآخرتي حارث."⁸

ورث الرجل علم القوم وأسرارهم، وهذا الإرث امتد به إلى أن يرث الكلمة والحرف بل اللغة، وبذلك جعل الكلمات تدور في أفلاك مهيمة ومثيمة، فنصوص صاحبنا وكلماته تنهل من عالم مأهول بالأنبياء، والأولياء، والملائكة. لذلك تزدهم عليك المشاهد وأنت تقرأ نصوص الإمام الأكبر. فهو رجل المشاهد في الفكر الصوفي كما تقول د. سعاد الحكيم: "ينتقل من مشهد إلى مشهد ومن تجل إلى تجل، ومن عالم إلى عالم ومن أرض إلى أرض"⁹.

هذه المشاهد والرؤى قد أسيئ فهمها لدى بعض الدارسين، إذ نجد زكي مبارك رحمه الله يعلق على الرؤيا التي جعلناها مفتتحا للحديث عن الفتح اللغوي عند الإمام الأكبر بنوع من الاستهزاء والاستيلاء¹⁰. وهذه من المطبات التي وقع فيها رحمه الله إذ ظل يتأرجح طوال الصفحات التي خصها للحديث عن الإمام الأكبر بين الإنكار الشديد وبين الإطراءات الملتبسة والمدخولة، ولم يستقر على حال وهذا إنما ينم عن عدم القراءة الجادة والمتعمقة في الإمام الأكبر.

هذا الفتح يسبق حركة الصوفي ولغته، ويصاحب مسيرتهما في طريق المعراج الإلهي، والفتوح عند ابن عربي هو: "فتوح العبارة في الظاهر، وفتوح الحلاوة في الباطن، وفتوح المكاشفة لتصحيح المطالعة"¹¹. فتوح العبارة ناتجة عن المكاشفة. ويربط الرجل بين الفتح والعبارة ربطا عجيبا. هذا الفتح الذي

يولد حلاوة الباطن ينتج عنها انسياب العبارات وتواليها، ولذلك فحضور الحق سبحانه وتعالى في وجدان الصوفي كبير، فبه يتحرك وعنه ينطق. هذا الفتح اللغوي من أهم مميزات لغة ابن عربي الإبداعية.

عندما ينكح ابن عربي الحروف هذا النكاح المعنوي في المشهد الغيبي الذي افتتحنا به الحديث عن فتوح اللغة، فقد أعطي الرجل مفاتيح الكلم، وفي هذا المشهد الغيبي وإن شئت الخيالي منحة ربانية يمنحها الله المخلصين من عباده ليتقربوا بها إليه، وإنما كلمات الإمام الأكبر وحروفه "حروف سالكة مسبحة قائمة تتجدد في محراب السلوك العرفاني، فهي أمة من الأمم"¹² لها سلوك واتجاه، "فاللفظ خرج من دلالاته على المسمى ليصبح دالا على حقيقة قامت في المسمى، هذه الحقيقة قد تكون صفة أو حالا أو مرتبة أو علاقة"¹³.

هذا التحول اللغوي فتح آفاقا لغوية واسعة أمام الصوفي. فقد سن ابن عربي قانونا لغويا جديدا مبني على الشهود، فأثرى لنا هذا الفتح اللغوي قاموسا لا يمكن الإحاطة بحدوده. فابن عربي سيخطو بمسألة اللغة خطوة جريئة جدا لأنه سينقلها من الحدود التي رسمتها لها أغلب الفرق الإسلامية، وهي حدود النص إلى مجال أكثر سعة وشمولية إذ سيربط بين فضاء اللغة وبين امتداد الوجود¹⁴. وبهذا يكون صاحبنا قد أغنى اللغة الصوفية بتعابير واصطلاحات، بل بمفاهيم جديدة، "فالرجل كان يعيش في جو خلقه بنفسه، وكانت له اقتحامات عقلية ولغوية تضيفه إلى المبتكرين في عالم الفكر والبيان¹⁵. لننظر مثلا كيف ربط بين حروف العلة والحروف الصغار -وهما مبحثان نحويان- بحركة السير والسلوك إلى الله عز وجل "... ولما كان المعلول موصوفا

بالمريض، كان ذا جهد ومشقة لما يقاسيه من ألم العلة القائمة به، إذ لا يوجد عن العلة إلا معلول، فلهذا جعلناه (الكلام على الحروف الصغار وحروف العلة) في باب المجاهدة، لأن المجاهدة مشقة وتعب¹⁶ رأيت كيف يستعمل الصوفي النحو ومفاهيمه ليتوغل في النفوس والأرواح جميعا، ليحل المعقد من قضايا البشر. وبذلك يكون النحو عند الصوفي دعوة إلى التحرر والتجرد عن رق الأشياء وإسقاط العلائق والعوائق، وجعل الكلمات تدور في عوالم السلوك ومجاهدة النفس من أجل الظفر بالله سبحانه وتعالى، فهو يجعل من حركات الحروف وسكناتها دلالات سلوكية بعيدة الغور والعمق، لا تزور إلا من هام بها عشقا وشوقا. يقول الإمام القشيري رحمه الله في كتابه الشيق الممتع "نحو القلوب الصغير": "الاسم: صحيح ومعتل. قال أهل العبارة: الصحيح ما سلم من حروف العلة، وهي: الألف والواو والياء. وقال أهل الإشارة: من سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء اليأس فقد صح اسمه، وحق له الإعراب وهو البيان، ثم الكشف والعيان، فعلم علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، والله أعلم"¹⁷.

فالقشيري في هذا النص يستعمل الاسم رمزا ليس مقصودا لذاته، وإنما يشير إلى ما يجب أن يتحقق به العبد السالك ليتدرج في نيل المقامات وهو سلامته من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء اليأس، وهي أوشاب للضعف ينبغي أن يتحرر منها العبد ليسمو فوق دنيا الحس. لقد حول الصوفية القواعد النحوية وخاصة الإمام القشيري وبعده الإمام الأكبر إلى مفاهيم صوفية رائعة، فأنزلوا اللغة الصوفية من لغة تجريدية تهتم بالمباني إلى لغة

بالإضافة إلى اهتمامها بالمباني تسعى إلى التحقق بالمعاني، هذا البعد العملي المصاحب لحركة الإنسان وسلوكه واهتماماته ومشاغله جعل من أكبر اهتمامات الصوفي صناعة الإنسان ليصبح عبدا واقفا مع الله بالله.

عند الصوفي تصبح اللغة ترجمة عملية للغيب، لا تنفصل عنده الحياة المعاشة الواقعية اليومية عن الحياة في اللغة، فهو سالك حتى في نصه وفي تعابيره، هذه التجربة اللغوية عند ابن عربي شكلت حركة إبداعية وسعت حدود اللغة، واستعادت العلاقة الوثيقة بين الشعور والغيب، على النقيض مما شمل التجربة العربية، حيث أعرضت البيانات العربية ردحا من الزمن عن المقعد الغيبي وألقتها الساحة الواقعية عن الاستمداد مما يعتبره الصوفي عالم الحقيقة الذي تستمد منه الحياة والكون ميناها ومعناها.

لقد شكلت رؤيته للحروف منطلقا إبداعيا مهما جدا بحيث تتحرر فيها دلالة كل حرف من حروف المنطق اللفظي لتمثل جزءا حيويا من المشهد الكوني. يقول ابن عربي: «اعلم أيدينا الله وإياك أن الحروف أمة من الأمم، مخاطبون ومكلفون، وفهم رسل من جنسهم وعالم الحروف أفصح العالم لسانا، وأوضحه بيانا، وهم على أقسام كأقسام العالم المعروف: فمنهم عالم الجبروت، ومنهم العالم الأعلى، ومنهم العالم الوسط، ومنهم العالم الأسفل وهو عالم الملك والشهادة. ولكل عالم رسول من جنسهم، ولهم شريعة تعبدوا لها. وفهم عامة وخاصة، وخاصة الخاصة، وصفية خاصة الخاصة...»¹⁸.

فابن عربي في هذا النص جسد الحروف كأنها تتحرك وتحس فهي أمة من الأمم، منها السابق ومنها اللاحق، منها المقبول ومنها المطروح، منهم من هو على

بساط القرب ومنهم من يناجي على الباب، فهذه الحروف رموز ليست مقصودة لذاتها وإنما هي أمة يتفاوت الناس فيها وتختلف منازلهم.

الخاتمة

لقد فتحت التجربة الذوقية التي عاشها الصوفية في خلواتهم وبرايرهم، وقد اتسع لهم من الوقت في حياتهم التي كان يطبعها التفرغ والانكفاف عن الخلق ما جعلهم يصيغون أشواقهم الشريفة المنيفة في قوالب لفظية يتداولها أهل الذوق فيما بينهم، ووراء كل لفظ علوم يهتمها الصيان، ولا يفصح عنها البيان، إلا إشارات لا يعرفها إلا من ذاق. هذا الواقع/الابتلاء الذي وقعت فيه اللغة الصوفية فتح أمامها ما يمكن أن نسميه جناية المصطلحات، وهو أمر لاحق التراث الصوفي طوال مساره التاريخي، فتراوح التعامل معه بين التهميش والتهميش، وهذا الأمر لا يزال حجر عثرة أمام كثير من الدارسين لاقتحام فضاءات النص الصوفي الذي لا يسلم نفسه لأي كان، فالعلم بالنص الصوفي لا يقوم بدون عمل، والظفر بالمعنى الصوفي لا يحصل بدون تحقق، لذلك فإن الذين تعاملوا مع النص الصوفي حديثا وقعوا في وهم التجريد، وذلك شأن الكتابة الأكاديمية "العلمية"، أو وهم التزييف، كما هو الأمر بالنسبة للكتابة الصوفية الأدبية¹⁹.

(يتبع...)

المصادر:

- (1) المواقف والمخاطبات لعبد الجبار النفري، عناية وتصحيح واهتمام، آرثر يوحنا أربري، ص 31.
- (2) نفسه، ص123.
- (3) نفسه، ص
- (4) نفسه، ص
- (5) نفسه، ص 119.
- (6) الفتوحات المكية، السفر الأول، ص216.
- (7) فإن قلت: وما المكاشفة؟ قلنا: المكاشفة هي تحقيق الأمانة بالفهم، وتحقيق زيادة الحال، وتحقيق الإشارة التي تعطيها "المحاضرة" الفتوحات، السفر الرابع عشر، ص 204.
- (8) الفتوحات المكية، السفر الأول، ص216.
- (9) ابن عربي ومولد لغة جديدة، سعاد الحكيم، ص62.
- (10) يقول زكي مبارك رحمه الله: وأين هذه الرؤيا الهلوانية من رؤيا يوسف، إذ قال لأبيه: "يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين". إن الفرق بين هذين الخياليين كالفرق بين هذين الروحين، سواء بسواء، وما كذب يوسف، وإنما استطال محيي الدين! التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق زكي مبارك، دار الجيل للنشر والتوزيع، ص124.
- (11) الفتوحات، السفر الثالث عشر، ص194.
- (12) نفسه، السفر الأول، ص:196.
- (13) ابن عربي ومولد لغة جديدة، سعاد الحكيم، ص76.
- (14) الكتابة والتجربة الصوفية، منصف عبد الحق، ص16.
- (15) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، ص132.
- (16) الفتوحات، السفر الأول، ص189.
- (17) نحو القلوب الصغير، تحقيق علم الدين الجندي، ص124.
- (18) الفتوحات المكية، السفر الأول، ص260/261.
- (19) المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل، محمد المصطفى عزام، تقديم: طه عبد الرحمن، ص 6/5.